# الفصل الرابع

# دولة المماليك ومملكة جورجيا

(656- 790هـ/1258- 1388م)

<

# الفصل الرابع

# دولة المماليك ومملكة جورجيا

## (656- 790هـ/1258- 1388م)

بعد احتلال المغول وحلفائهم من الجورجيين والأرمن بغداد في سنة 656هـ/1258م عمت الفوضى أرجاء الدولة الإسلامية، الأمر الذي جعلها فريسة سهلة للأعداء المتربصين بها من الخارج، كالجورجيين وأبناء دينهم من الصليبيين والأرمن، فضلاً عن سوء الأوضاع الداخلية - السياسية والاقتصادية - فالخلافة العباسية التي مثلت المسلمين لمدة أكثر من خمسة قرون قد قُضِيَ عليها على يد المغول كما فصلنا في الفصل الثاني من كتابنا هذا، وأصبح المسلمون بلا خليفة. أما في بلاد الشام ومصر والجزيرة، فقد دبت الانقسامات بين أبناء البيت الأيوبي الحاكم في كل منها، إذ سعى كل منهم من أجل التوسع على حساب مناطق نفوذ الطرف الآخر، كالنزاع الذي حدث بين الملك الظاهر غازي (582-612هـ / 1186- 1215م) بن صلاح الدين وعمه الملك العادل (596-615هـ/1199- 1218م) صاحب مصر، مّما سهّل على المغول وأتباعهم احتلالها في سنة 658هـ/1260م بلاد الشام، ولم يبق أمامهم سوى مصر التي كانت تعاني أيضاً من سوء أوضاعها السياسية، بسبب ضعف حكم البيت الأيوبي الذي بدأ يحتضر بوفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل (615-636هـ/1218-1138م) في سنة 648هـ/1250م، وانتقال الحكم إلى ولده تورانشاه في السنة ذاتها [1]، ومن ثم تولى زوج أبيه شجر الدر من بعده [2].

وفي وسط تلك الظروف الحرجة، كانت قوة المماليك الجديدة تنمو شيئاً فشيئاً، فقدر لتلك القوة أن تتسلم زمام الأمور بعد مقتل الملك تورانشاه الأيوبي على أيدي كبار أمرائها في سنة 648هـ /1250م[3]، ونجحت في تثبيت أركان دولتها في عهد السلطان قطز في القاهرة، فأصبحت القوة المدافعة عن الإسلام، لكونها مثلت أكبر قوة إسلامية في المنطقة

(1) المقريزي، الخطط: ج1/ص236-237.
(2) السيوطي، حسن المحاضرة،ج2/ص 38-39؛ سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص10 -12؛ مصر في عصر، ص16-17.
(3) لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ص78.

آنذاك، ولاسيما بعد انتصارها على المغول في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م إذ عد ذلك التاريخ الفعلي لقيام دولة المماليك.

والمماليك البحرية هم من أصول تركية، والمعروف عن ذلك العنصر تميزه بالصلابة والجلادة والشجاعة في القتال، ممّا حدا بالأيوبيين إلى استخدامهم كعناصر محاربة في صفوف قواتهم، لمواجهة الأخطار الخارجية من ناحية، وللقضاء على منافسيهم على السلطة من أبناء البيت الأيوبي والبيوتات العريقة في الحكم كالزنكيين والاراتقة وغيرهم من ناحية أخرى، ويعد الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من استكثر من شرائهم والاستعانة بهم في صفوف قواته،فأنشأهم نشأة عسكرية إسلامية، وخصص لهم أماكن إقامة خاصة بهم في جزيرة في نهر النيل تدعى روضة الفرج، ولذلك سموا بالمماليك البحرية [1]، ونتيجة لإخلاصهم وتفانيهم في خدمة الملك الصالح، فقد تولى أمراؤهم المناصب العليا في الدولة كقيادة الجيوش بل أصبح معظم أمراء جيشه منهم [2].

لقد كان للمماليك دورهم العظيم في ردع المغول وكسر شوكتهم [3]، واثبات خطأ الأسطورة القائلة بأن المغول قوم لا يهزمون، ومن النتائج الطبيعية أن الدولة كلما زادت قوتها كثر خصومها وأعدائها، فقد عدهم الصليبيون والمغول من ألد أعدائهم، وأنهم القوة التي كسرت شوكتهم، وأنقذت المسلمين من ضياع تام، مما أثار غضب المغول، فسعت القوى المناهضة للمماليك إلى التحالف مع المغول كالصليبيين، فضلاً عن الجورجيون والأرمن، وبحكم تخصص الفصل بدراسة العلاقات السياسية للدولة المملوكية مع مملكة جورجيا، فسيبحث في علاقة المماليك مع الإشارة إلى القوى الأخرى ضمنه حسبما تقتضيه الحاجة إلى ذكرها.

امتازت العلاقات المملوكية - الجورجية منذ نشأتها بتغلب الطابع العدائي على معظمها فكانت المواجهة الأولى بين الطرفين في سنة 658هـ/1260م، عندما اشترك الجورجيون مع المغول في احتلال بلاد الشام، ومهاجمة المماليك في مصر، إلا أن الدائرة فيها دارت على القوات المغولية والقوى المشاركة معها، فكُبدت بخسائر فادحة، ونجح

(1) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص5؛ مصر في عصر دولة المماليك، ص14.
(2) المقريزي، الخطط: ج1/ص236-237.
(3) الكتبي، عيون التواريخ: ج2/ص228؛ المقريزي، السلوك: ج1/ق2/ص432 - 433.

المماليك على إثرها في تحرير بلاد الشام [1]، وأعادوا الوحدة بين مصر وبلاد الشام تحت سلطتهم، بعد أن انفصمت عراها منذ عهد شجر الدر، وبعد أن نجح المماليك في كبح جماح المغول، بدأ السلطان الظاهر بيبرس يعد العدة للانتقام من القوى التي اشتركت مع المغول كالجورجيين والأرمن في شن الحرب عليها، ولاسيما انه نجح في إقرار الأمن، وثبت أركان دولته، فأرسل حملة عسكرية إلى مملكة أرمينية الصغرى في سنة 664هـ/1265م، واجتاح أراضيها، ودك عاصمتها سيس، وأحرق ما فيها من خزائن [2]، وقتل في تلك الحملة أحد أبناء الملك هيثوم الأول، واسر ابنه الثاني وشقيقه الكندسطبل سمباذ [3]، فضلاً عن كمٍ كبيرٍ من الغنائم، فكانت كثرة الغنائم، سبباً في انخفاض الاسعار، ويتضح ذلك من خلال قول المقريزي: ((بيع رأس البقر بدرهمين، ولم يجد من يشتريه)) [4]، كما هاجم إمارة أنطاكيا الصليبية في السنة ذاتها، وعادت القوات إلى مصر في 2 من شهر ذي الحجة سنة 664هـ/1265م [5]. أما ما يتعلق بمملكة جورجيا، فقد عمل ملكها على تحسين علاقته بالمماليك، ولاسيما بعد أن أدركوا انه الهدف اللاحق للمماليك، فأوفد الرسل والهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس في القاهرة، فاستقبلهم بكل السلطان بكل مظاهر الإجلال والاحترام وقبل الهدايا [6].

وعلى ما يبدو أن موافقة السلطان الظاهر وقبوله للهدايا كان بهدف كسب الوقت للتفرغ للمغول أولا وللخصوم والأعداء القريبين منه كالصليبيين والأرمن ثانياً، فضلاً عن كون مملكة جورجيا تقع على مسافة بعيدة من القاهرة، فقد تكلفه مهاجمتها المال والرجال، وربما يستغلها المغول لمصلحتهم، فيقوموا بمهاجمة بلاده، ويقطعوا خط الرجعة على قواته إذ ما هاجم مملكة جورجيا.

---

(1) الهمذاني، جامع التواريخ: مج 2/ج 1/ص313 - 316؛ الكتبي، عيون التواريخ: ج2/ص226- 227؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج7/ص78-80؛
Lane - Pool Stanley, A history Of The Egypt In The Middle Ages ,Fourth Edition , (No. p. - London: 1968) , P. 202.

(2) للمزيد من التفاصيل ينظر: المقريزي ، السلوك: ج1 / ق2 /ص552؛ العيني، عقد الجمان: ج1/ص423؛ ابن أيبك، كنز الدرر: ج 8/ص 118؛ اللهيبي، مملكة أرمينية الصغرى ، ص 113 - 114؛ العس، أخشاب من تربة خالد بن الوليد : ع 19/ ص 17.

(3) سعيد عاشور، الظاهر بيبرس، ص 103 - 104؛
Lang , Armenia , P. 207 ; Syedon , Baybars 1 ,P. 56.

(4) السلوك: ج1 / ق2 / ص552؛ العيني، عقد الجمان: ج1 / ص142.

(5) ابن أيبك، كنز الدرر: ج8/ص118.

(6) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر: ص 299.

أرسل السلطان الظاهر رسولاً إلى ملكها داؤد الخامس (643-667هـ/1245–1269م) في سنة 665هـ/1266م، فوصل رسوله إلى العاصمة الجورجية تفليس[1]، وحظي باحترام الملك داؤد الخامس الذي أكرمه، وبقي في البلاط الجورجي لعدة أشهر، ثم عاد إلى القاهرة في سنة 666هـ/1267م، وهو محملاً بالهدايا الثمينة، فضلاً عن كتابين من الملك داؤد الخامس بن الملكة في روسودان (620-643هـ/1223–1245م) تفليس، وقسيمه في الحكم الملك داؤد السادس (672-688هـ/1273–1289م) بن جورج لاشا (609-620هـ/1212 – 1223م) ملك أبخازية، وأعرب الأخير في كتابه عن حسن نواياه تجاه سلطنة المماليك، كما أشار فيهما إلى انه انحاز إلى جانب بركة خان (654-665هـ/1256-1267م) في صراعه الدائر مع أخيه آباقا خان بن هولاكو(654-663هـ/1256-1265) [2].

وعلى ما يبدو أن اتخاذ الملك داؤد السادس لمثل ذلك الإجراء يرجع إلى إدراكه التام بحسن العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس وبركة خان، لذلك سعى إلى كسب ود السلطان الظاهر إلى جانبه في صراعه مع ابن عمته داؤد الخامس ملك تفليس وشريكه ومنافسه في حكم المملكة عن طريق إثبات حسن نواياه تجاه السلطان الظاهر وكل حلفائه.

وفي سنة 672هـ/ 1273م خرج الملك داؤد السادس من بلاده متوجهاً إلى بلاد الشام ومتخفياً في زي الرهبان لغرض الحج وزيارة بيت المقدس، وبرفقته عدد من خاصته، فعبر من بلاد الروم والأراضي الأرمينية، ومنها توجه بحراً إلى مملكة عكا الصليبية، ثم سار منها إلى بيت المقدس[3]، إلا أن الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار[4] نائب السلطنة في القدس علم به عندما كان في مدينة يافا، فأرسل إليه مجموعة من العسكر، فقاموا بالقبض عليه مع

(1) تفليس: تقع في أعالي وادي نهر الكر (كورا)، ويقسمها هذا النهر إلى قسمين، وتحيط بها أراضٍ سهلية واسعة تمتاز بخصوبة تربتها، مما أدى إلى نماء اقتصاد المدينة بسبب كثرة إنتاجها الزراعي، فساعد من بعدُ على ثراء سكانها تميزت مدينة تفليس بحصانتها العالية، كما أنها احتلت موقعاً وسطياً في منطقة القوقاز وعلى بعد ستين ميلاً عن ساحل البحر الأسود، ونظراً لهذا الموقع الهام اتخذ منها الملوك الجورجيون عاصمة لهم. أما تسميتها فقد أطلق عليها عدة تسميات منها تفليسي أو تبليسي، وهي كلمة جورجية الأصل مأخوذة من كلمة تفلي أي بمعنى حار، قد تكون هذه الكلمة مستمدة من منابع تفليس الحارة، كما عرفت في اللغة الأرمينية باسم تفخيس، وفي اللغة العربية تفليس، وهي كلمة غير عربية اعتمد في إطلاقها على الأصل الجورجي ينظر: اللهيبي، دراسات في علاقة الأرمن والكرج بالقوى الإسلامية في العصر العباسي (دار الكتب العلمية، بيروت: 2013م)، ص135-155.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص299.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج 7/ص163 - 164

(4) الخازندار: هو الشخص المشرف على خزائن السلطان من نقد وامتعة. ينظر: عاشور، العصر المماليكي، ص432.

ثلاثمائة من الذين كانوا معه، وتم إرساله مع الأمير منكورس إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي كان في دمشق آنذاك، فأستقبله السلطان، وسأله عن هويته، فأعترف بأنه داؤد السادس ملك جورجيا، فأمر السلطان بحبسه في أحد أبراج المدينة، وأرسل رسولاً إلى جورجيا، لكي يعلمهم بأسر ملكهم، ثم عاد السلطان إلى القاهرة، وبهذا الشكل أنهى ابن شداد وابن تغري بردي[1] روايتهما بينما يشير العيني[2] إلى أن حبسه تم في القلعة المنصورة، وهي قلعة دمشق الحصينة، ثم أطلق سراحه مقابل فدية مالية كبيرة بعد أن سمح له السلطان بالحج إلى بيت المقدس، وأخذ الأيمان والمواثيق منه على أن لا يقوم بأي عمل معادٍ ضد سلطنة المماليك.

لم تلبث العلاقات الحسنة التي أقامها ملك تفليس داؤد الخامس مع السلطان الظاهر بيبرس أن تعكر صفوها بعد وفاته في سنة 668هـ/1269م، وتولي ولده الملك ديمتري الثاني (688-691هـ/1289–1291م) الذي أتبع سياسة مغايرة لسياسة والده تجاه المماليك، وبدأ بتحسين علاقاته بالمغول من أجل كسبهم إلى جانبه في الصراع مع منافسه داؤد السادس الذي أخذ جانب المماليك، فأشترك بألف فارس إلى جانب المغول ضد المماليك في سنة 672هـ/1273م وعلى الرغم من ذلك لم يأمن المغول جانبه، فوضعوا قواته في مقدمة القوات المغولية خشيةً من ميلهم للمماليك، ولاسيما أن والده داؤد الخامس كان على علاقة حسنة بهم ((خوفاً من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج طلبا واحدا)) [3]، إلا أن الدائرة دارت في تلك المعركة عليهم، فألحق بهم المماليك هزيمة نكراء.

إن اشتراك القوات الجورجية التي أرسلها الملك ديمتري من تفليس مع المغول في معركة الابلستين، لم تؤثر على العلاقات الحسنة بين داؤد السادس ملك أبخازية والسلطان الظاهر بيبرس، إذ قَدِمَ إلى بلاد الشام رجلٌ من أقارب الملك داؤد السادس من أجل الحج إلى بيت المقدس في سنة 675هـ/ 1277م، وكان متنكراً بزي الرهبان، وعندما وصل إلى مدينة عكا سار منها إلى مدينة القدس، وما أن علم السلطان الظاهر به، أمر جنده بالقبض عليه وعلى من معه من الزائرين، إلا أن السلطان اظهر لهم كل مظاهر الاحترام والتقدير، وخلع عليهم الهدايا الفاخرة، وجهزهم بما يليق بمقامهم، وسمح لهم بالحج إلى بيت المقدس

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج7/ص163 - 164؛ ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص74.
(2) العيني، عقد الجمان: ج2/ص113.
(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج7/ص168.

ثم غادروه إلى مملكة جورجيا، وعندما وصلوا إلى بلاط الملك داؤد السادس ذكروا له ما قام به السلطان من إكرام، فَسُرَّ الملك بذلك، وأرسل إلى السلطان رسولاً ليقدم له الشكر والامتنان على معاملته الحسنة للحجاج الجورجيين، كما أرسل معه هدية فخمة، فقبلها السلطان منه وأكرم الرسول وأعاده إلى بلاده [1] ، كما أن العلاقات لم تلبث أن تحسنت بين السلطان الظاهر بيبرس والملك ديمتري الثاني، إذ قام الأخير بإرسال السفارات والهدايا الثمينة تقرباً منه، ومما يؤكد تلك العلاقة الحسنة بين الطرفين، ويثبت وجود الرسل المتبادلة بينهما، مهاجمة السلطان الظاهر لإمارة طرابلس الصليبية في سنة 675هـ/ 1277م من أجل الانتقام من صاحبها الأمير بوهيمند السادس بسبب سوء تصرفه وعدم احترامه لحقوق الجوار، إذ قبض على الرُسل الذين أرسلهم ديمتري الثاني ملك جورجيا إلى القاهرة عندما تحطم مركبهم، فاستولى على ما معهم من أموال فضلاً عن الرسائل التي يحملونها من الملك ديمتري إلى السلطان الظاهر، ولم يكتف بذلك بل سلم الرسائل للمغول، مما أثار غضب السلطان، فهاجم المدينة وحاول الاستيلاء عليها[2].

إن العلاقات الحسنة بين الجورجيين والمماليك لم تدم طويلاً، فسرعان ما نكث الملك ديمتري الثاني العهد، واشترك مع المغول في الإغارة على الأراضي التابعة للدولة المملوكية في بلاد الشام، وعلى ما يبدو ان السبب في ذلك يرجع إلى طمعه في الحصول على المزيد من الغنائم من ناحية، ولخوفه من بطش المغول القريبين منه من ناحية أخرى، الذين بدأت تهديداتهم تزداد على بلاده، لذا فقد سار السلطان في سنة 675هـ/1277م لإنزال ضربة قاصمة بالمغول وأتباعهم من الجورجيين والأرمن منطلقاً على رأس قواته من منطقة حيلان الواقعة جنوب حلب إلى بلاد الروم، وما أن وصل إلى الابلستين حتى وجد القوات المغولية المتكونة من اثني عشرة فرقة من الفرسان، وتتكون كل فرقة من ألف فارس وعليها مقدم، فضلاً عن فرقتين أحدهما من الجورجيين والأخرى من السلاجقة [3]، في حين يشير ابن العبري إلى أن عدد القوات الجورجية المشاركة يصل إلى ما يقارب

(1) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 168.
(2) عفاف سيد صبرة، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية (دار الكتاب الجامعي، القاهرة: 1986م)، ص 507.
(3) Khowiter , Bailers The First , P. 73.

ثلاثة آلاف مقاتل [1]، كما انه يؤكد ذلك في كتابه الآخر قائلاً: ((وكان مع المغول ثلاثة ألاف كرج فوقفوا وبذلوا الجهود فقتل منهم ألفان))[2]، فباغتهم السلطان الظاهر، ونجح في إلحاق الهزيمة بهم، وقتل وأسر عدداً كبيراً منهم، فبلغ عدد القتلى ما يقارب خمسة آلاف قتيل من بينهم ألفا أسير من الجورجيين وهرب من بقي منهم حياً، كما هرب معين الدين البروانة [3] مقدم القوات السلجوقية، فسار السلطان الظاهر اثر ذلك إلى قيسارية، وجلس على عرش السلطان السلجوقي.

إن الرواية الثانية التي أوردها ابن العبري عن عدد القوات الجورجية المشاركة، هي الأرجح والأقرب إلى الصحة من الرواية الأولى، لكونه أقدم زمنياً واقرب إلى الحدث، فضلاً عن اتفاق روايته مع ما أورده ابن ايبك الذي أشار إلى أن عدد القتلى بلغ ستة آلاف وسبعمائة وسبعين، بضمنها القتلى الجورجيون والسلاجقة الذين بلغوا نصف العدد، فإذا كان عدد القتلى ستة آلاف وسبعمائة وسبعين ، فأن نصفها يبلغ ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسة وثمانين من الجورجيين والسلاجقة، وبذلك يكون عدد القتلى الجورجيين ضعفي ما ذكرته الرواية الأولى.

كما اشترك الجورجيون والأرمن إلى جانب أسيادهم المغول في مهاجمة بلاد الشام في

سنة 679هـ/1280م [4] مستغلين حالة الاضطرابات التي كانت تعيشها دولة المماليك البحرية عقب تولي المنصور قلاوون (678-689 هـ/1279-1290م) للسلطنة، وثورة الأمير سنقر الأشقر نائب الشام، وإعلانه العصيان وعدم الاعتراف بالمنصور سلطاناً، فهرب إلى

(1) تاريخ الزمان، ترجمة: اسحق أرملة (دار المشرق، بيروت: 1991م)، ص 335؛ ابن أيبك، كنز الدرر: ج8/ص204.

(2) تاريخ مختصر الدول، ط2 (المطبعة الكاثوليكية، بيروت: 1958م)، ص 287.

(3) معين الدين البروانة: هو سليمان بن محمد بن حسن الصاحب معين الدين كان في بداية الأمر معلما للصبيان ثم وصل بجهوده الكبيرة إلى منصب الوزارة وأطلق عليه لقب البروانة ومعناه في الأصل الحاجب وأطلق هذا اللقب بدولة السلاجقة على الوزير الأكبر وكان مدبرا لمملكة السلاجقة توفي في سنة 676هـ/1277م في واقعة المغول مع الظاهر بيبرس. ينظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: احمد يوسف نجاتي (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة: 1956): ج1/ ص185.

(4)H. H. Howorth , The History Of The Mongols From " 9th To 19th " Century (No. p.London: 1989): Vol.3/ p.278 – 281 ; Setton , A history Of The Crousades: Vol. 2/ p. 655.

المغول وأخذ بالتآمر معهم ضد المنصور قلاوون [1]، ممّا شجع المغول وأتباعهم من الجورجيين والأرمن على مهاجمة بلاد الشام.

وعلى ما يبدو أن تلك الحملة التي احتل فيها المغول كل من بغراس[2] وعينتاب [3] ودربساك[4] ، فضلاً عن مدينة حلب [5] لم تكن اكثر من حملة تكسب من أجل جمع الغنائم والتدمير من ناحية، واستطلاع للكشف عن وضع المماليك ومدى قدرتهم على التصدي للأخطار الخارجية من ناحية أخرى، وان انسحاب المغول وأتباعهم عن البلاد، يُعَدُّ دليلاً واضحاً على أنها مجرد حملة استطلاعية وتمهيد للقيام بحملة 680هـ/1281م [6].

وبعد انتهاء آباقا بن هولاكو من إعداد تلك الحملة على بلاد الشام في 30 تشرين الأول 680هـ/ 1281م، والبالغ تعدادها مئة ألف مقاتل [7]، وبضمنها ثلاثون ألفا من الجورجيين والأرمن الذين يقودهم ديمتري الثاني ملك جورجيا وليفون الثاني ملك أرمينية الصغرى [8] في الوقت الذي لم يحدد فيه العيني عدد القوات الجورجية المشاركة وإنما أدرجها ضمن عدد القوات الأرمينية، يحدد ابن العبري تلك القوات قائلاً: ((وفيهم ملك الأرمن مع خمسة ألاف من الكرج)) [9]، ويقود تلك القوات مجتمعةً الأمير منكوتمر شقيق آباقا خان الذي أمر بسيرها إلى بلاد الشام في السنة ذاتها، فدخلوها ووقعت المعركة الحاسمة عند أطراف مدينة حمص، حيث معسكر القوات المملوكية التي كانت لها الغلبة، فألحقت بالمغول وتابعيهم من الجورجيين والأرمن هزيمة ساحقة وفر الباقون، إلا انهم لم

(1) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص68؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية: ج3/ص564.
(2) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس، وعلى مسافة تقدر بأربعة فراسخ عن الاسكندرونة، وكانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك ووقفها على سبيل البر، وكانت بيد الإفرنج ففتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة 584هـ/1188م. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج1/ص182،467 .
(3) عينتاب: وهي قلعة حصينة بين حلب وانطاكية ومن أعمال حلب. ينظر: المصدر نفسه: ج3/ص176.
(4) دربساك: وهي قلعة قريبة من أنطاكية. ينظر: شهاب الدين محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بأبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (دار الجليل، بيروت: د. ت.): ج4/ص38.
(5) ابن ايبك، كنز الدرر: ج8/ص283؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج7/ص299.
(6) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية: ج3/ص564؛ اللهيبي، مملكة أرمينية، ص123.
(7) قداوي، التحالف المغولي الأرمني الصليبي: ع 10/ص11؛ بسام العسلي، فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية (دار الفكر، بيروت:1988م)، ص 252.
(8) العيني، عقد الجمان: ج2/ص271.
(9) تاريخ مختصر الدول، ص 289.

يكونوا أوفر حظاً من المرة الأولى، فوقعوا في كمين أعدته لهم القوات المملوكية، فَقُتل وأُسِر معظمهم، بحيث أشار المؤرخون إلى ذلك من خلال قولهم ((لم ينجُ منهم إلا دون العشرين)) [1] بذلك الانتصار الذي حققه المماليك على المغول والجورجيين والأرمن بدأوا يعدون العدة من أجل توجيه ضربة تأديبية انتقامية لمملكة جورجيا ومملكة أرمينية الصغرى، لقاء اشتراكهم مع المغول واعتدائهم على الأراضي المملوكية، فسيروا حملة إلى مملكة أرمينية الصغرى في سنة 682 هـ/ 1283م، واكتسحت الأراضي الأرمينية، وعادت محملة بالغنائم [2].

أما مملكة جورجيا فلم يتسنَ للمماليك تسيير حملة عسكرية إليها بسبب بعدها عن مقر السلطنة من ناحية، ووعورة الأراضي وصعوبة مناخها من ناحية أخرى فضلاً عن انشغال المنصور قلاوون في مقارعة الصليبيين في بلاد الشام من أجل القضاء عليهم، كما أن قيام ملك جورجيا بمحاولات استرضاء المماليك، أدى إلى توقفهم عن القيام بمهاجمتها، وخاصةً أن الملك ديمتري أدرك حقيقة ضعف أسياده المغول، وشعر بأن مملكته ستكون الهدف اللاحق للمماليك بعد مملكة أرمينية، فأرسل إلى السلطان يسترضيه من خلال إرسال الهدايا والأموال، وكتب على نفسه عهداً بعدم النكث ومما يدل على وجود المراسلات بين مملكة جورجيا وسلطنة المماليك ما أورده القلقشندي عن رسم المراسلة بينهم والتي تضمنت الصيغة التي أرسلها ملك جورجيا إلى السلطان المملوكي ((أدام الله بهجة الحضرة العلية، حضرة الملك الجليل، الهمام، الباسل، الضرغام، السميدع [ السيد الكريم ]، الكرار، الغضنفر، المتوج، العالم في ملته، العادل في رعيته، بقية الملوك الإغريقية، سلطان الكرج، ذخر ملك البحار والخلج، حامي حمى الفرسان، وارث آبائه في الأسر والتيجان، سياج بلاد الروم وإيران، سليل اليونان، خلاصة ملوك السريان، بقية أبناء التخوت والتيجان، معز النصرانية، مؤيد العيسوية، مسيح الأبطال المسيحية، معظم البيت المقدس بعقد النية عماد بني المعمودية، ظهير الباب بابا رومية، مَواد المسلمين، خلصة الأصدقاء المقربين صديق الملوك والسلاطين)) [3].

(1) الهمذاني، جامع التواريخ: مج 2/ج2/ص83-84؛ المقريزي، السلوك: ج1/ ق2/ص698.
(2) المقريزي، نفسه: ج2/ ق3/ص716؛ سرور، دولة بني قلاوون، ص224؛ اللهيبي، مملكة أرمينية الصغرى، ص124.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى: ج8/ص28.

ان الصيغة التي خاطب بها ملوك الأرمن سلاطين المماليك وما وصفوهم به تعد خير دليل على قوة المماليك آنذاك وضعف مملكة جورجيا بسبب سوء أوضاعها الداخلية المضطربة مّما أدى بهؤلاء الملوك إلى التمجيد والتكبير في أوصاف السلطان المملوكي من أجل كسب وده وضمان عدم الإغارة على بلادهم.

وعلى الرغم من تلك المراسلات والعهود والمواثيق التي قطعها ملوك جورجيا للمماليك على أنفسهم من ناحية، وكرههم للمغول من ناحية أخرى، فقد اشتركوا معهم في الإغارة على مناطق نفوذ المماليك في بلاد الشام والمناطق الأخرى، وربما يرجع ذلك إلى خشيتهم من بطش المغول القريبين منهم مقارنةً ببعدهم عن المماليك، إذ إن مملكة جورجيا كانت تقع بين إيلخانية المغول في بلاد فارس ومغول القفجاق (القبيلة الذهبية) في جنوب روسيا، فضلاً عن استغلالهم للظروف التي كانت تمر بها دولة المماليك البحرية بسبب حركات التمرد والعصيان التي شغلتهم بالأمور الداخلية، وصرفت أنظارهم عن الأخطار الخارجية، ولاسيما بعد مقتل السلطان الأشرف خليل (689-693هـ/1290-1293م) في سنة 692هـ/1293م واستبداد الأمراء الكبار بأمور السلطنة، واستمر الحال على هذا النحو حتى سنة 708هـ/1308م، عندما تولى السلطنة للمرة الثالثة، وقبض على زمام الأمور بيد من حديد[1].

كما اسهم الجورجيون في عهد الملك داؤد السابع (691-701هـ/1292-1301م) إلى جانب المغول في الإغارة على بلاد الشام في سنة 699هـ/1299م، وتحت قيادة غازان خان (694-703هـ/1295-1303م) بن ارغون بن هولاكو، فعبرت تلك القوات نهر الفرات ونازلت مدينتي حلب وحماه حتى وصلت وادي مجمع المروج القريب من حمص، فخرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون لملاقاتهم على رأس القوات المصرية والشامية فضلاً عن مقاتلين من العرب والتركمان فالتقت قواته بالقوات المغولية والقوات التابعة لها في وادي الخزندار الواقع شرقي حمص وعلى بعد ثلاثة فراسخ أي ما يقارب الستة كيلومترات عنها، إلا أن القوات الجورجية والمغولية أحاطت بالقوات المملوكية، ونجحت في إلحاق الهزيمة بها، مما اضطرها إلى الانسحاب إلى الديار المصرية،وبذلك استولت القوات المعادية على بلاد

(1) للمزيد من التفاصيل عن الأوضاع الداخلية لدولة المماليك البحرية في تلك الحقبة ينظر: سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص101 - 125.

الشام باستثناء مدينة دمشق، وبهذه الطريقة يكون الجورجيون قد أدوا دوراً كبيراً في رجحان الكفة لصالح المغول [1]، مما شجعهم على القيام بحملتين أخرتين في سنتي 700هـ/1300م و702هـ/1303م، إلا أنهم فشلوا في المرة الأخيرة التي مثلت آخر حملة مغولية كبيرة على بلاد الشام تشترك فيها القوات الجورجية [2].

لم يلبث الملك داؤد السابع ملك جورجيا أن أرسل رسولاً في سنة 705هـ/ 1305م إلى نائب السلطنة في مدينة القدس يستعطفه، ويطلب منه إعادة الكنيسة المصلبة [3] التي أخذت من أيديهم في عهد الناصر محمد، فأرسل النائب إلى الأبواب السلطانية يطلعهم على الأمر وحازوا على عطف السلطان، فأمر في إرجاعها إليهم، فتسلموها في السنة ذاتها [4].

وعلى ما يبدو أن تغير مسار السياسة الجورجية التي اتبعها الملوك الجورجيون من خلال تخليهم عن المغول حلفائهم بالأمس، والسعي لكسب ود المماليك يرجع إلى ضعف قوة المغول ووهنها في تلك الحقبة مقارنة بقوة المماليك من ناحية، وما كانت تتطلبه أهدافهم ومصالحهم من ناحية أخرى، من أجل تأمين بلادهم من الغارات المملوكية، إذ لم تعد للجورجيين القوة الكافية من أجل الدفاع عن بلادهم بعد ما عانوه من ويلات الحروب ودمارها فضلاً عن هدف آخر هو استرجاع الأماكن الدينية التابعة لهم في مدينة القدس مستغلين التسامح الذي كان يتصف به المسلمون.

واستمرت العلاقات الجورجية المملوكية تسير بشكل حسن، وكان المماليك يتبعون سياسة اللين والعطف والتسامح الديني معهم، كما هو الحال مع الطوائف النصرانية الأخرى التي تعيش ضمن مناطق نفوذهم، وفي الوقت ذاته كانت بعض الأديرة النصرانية تحت وصاية المماليك، فأرسل ملك جورجيا في سنة 712هـ/ 1312م إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطلب منه ردَّ تلك الأديرة الواقعة في مدينة القدس إلى الطوائف النصرانية التابعة لها، وخاصةً دير سانت جيمس [ القديس جورج ] التابع للجورجيين والأرمن،

(1) ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، مجلة المشرق اللبنانية: ع50/ص411؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص157.
(2) المقريزي، السلوك: ج1/ق3/ ص886، 908-909، 930 -933.
(3) الكنيسة المصلبة: وهي الكنيسة المختصة بطائفة الكرج، وتقع في ظاهر القدس من جهتها الغربية، وهي أحد أعمدة الكنائس النصرانية، ينظر: العليمي، الأنس الجليل: ج2/ص50.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى: ج8/ص280؛ العليمي، المرجع نفسه: ج2/ص50.

فأعادها السلطان لهم، واكرم رسل ملك جورجيا وأعادهم إلى بلادهم محملين بالهدايا [1] ، فضلاً عن قيامه ببناء كنيسة لملك جورجيا في مدينة القدس من دون أن يطلب منه ذلك ((وأذن بعمارة كنيسة لملك الكرج)) [2].

ونخلص من ذلك إلى أن السفارات التي كان يرسلها ملوك جورجيا إلى سلاطين المماليك في مصر، تعد خيرَ دليل على انصياع الجورجيين للمماليك من ناحية، فضلاً عن سوء الأوضاع الداخلية - الاقتصادية والاجتماعية - التي عانت منها مملكة جورجيا بسبب الضرائب الفادحة المفروضة عليها من جانب المغول من ناحية أخرى.

وكان لمعاهدة الصلح المعقودة بين المغول والمماليك في سنة 723 هـ/ 1323م أثرها في تحسن العلاقات الجورجية المملوكية، إذ أدرك الجورجيون أن هذه المعاهدة قد أفقدتهم حليفاً قوياً، وربما يصبح حليفهم السابق عدواً جديداً بموجب هذه المعاهدة إذ ما اعتدوا على أراضي الدولة المملوكية [3] واستمر الحال على ذلك حتى سنة 790هـ/1388م حيث الغزو التيموري الذي داهم مملكة جورجيا وأخضعها لسيطرته، وهدد مناطق نفوذ المماليك في كل من مصر والعراق وبلاد الشام واسيا الصغرى، فأضطر المماليك إلى اتخاذ موقف المدافع عن ممتلكاتهم، وعدم السعي إلى إثارة القوى المجاورة الأخرى، فأدى ذلك إلى توقف العلاقات الجورجية - المملوكية.

(1) Sanjian , Armenian Communities In Syria , P. 172.

(2) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة: ج6/ص162.

(3) المقريزي، السلوك: ج2/ ق1/ص209 - 210.